

تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

الفصل الأول

- ٥ -

لم تصلنا منه أية نسخة للأسف كان يسمى « كتاب الملوك وأخبار الماضين » وقد تكلم عنه السمودي^(١) (٩٥٦ م) ككتاب معروف متداول في محيط كبير ، كما اعتمد عليه فيما بعد شارح « القصيدة الحميرية » إمامباشرة أو بواسطة الأكليل للهمداني . وقد نعتبه - كما اعتبره الشارح نفسه - كقصّة تاريخية لكثير من شخصياتها وحوادثها أساس من الحقيقة والواقع قد موّت بكثير من القصص الخيالية والقصائد المكذوبة ، مما يجد فيها السّامع خير عون له على أداء مهمته . ومن بين المؤلفين المسلمين القلائل الذين اهتموا بدراسة تاريخ عرب الجنوب في العصر السابق للإسلام حمزة الأصمغاني ، وبعدهما الكتاب الثامن من تاريخه (الذي انتهى منه عام ٩٦٦ م) بتفاصيل تاريخية دقيقة موجزة عن التبابعة أو ملوك اليمن الحميريين

خلف قطان - جدّ أعراب الجنوب - ابنه يعرب الذي يقال إنه أول من اتخذ العربية لساناً ، وأول من أخذت له التحايا التي اعتاد العرب أن يحموا بها ملوكهم كقولهم « أنم صباحا » و « أيتت اللعن » وقد اشتهر حفيده عبد شمس سبأ باسم مؤسس مأرب وباني سدها المشهور ، وإن كان هناك آخرون يقولون إن مؤسسه هو لقمان بن عاد ، وكان لسبأ ولدان حمير وكهلان ، وقبل موته عهد إلى حمير بالجلوس على العرش وإلى كهلان بحراسة التخوم ، وشنّ الغارات على الأعداء ؛ ومن ثم كانت لحير السيادة واتخذ اسم « أبو أيمن » وأقام في عاصمة المملكة بينما تمهّد كهلان بالدفاع عنها وتبدير الحروب^(٢) وبالاعضاء عن سرد سلسلة نسب الملوك السبئيين الخرافيين الذين لا تذكر القصة عنهم إلا قليلاً جداً ، فإنا نغضى إلى ذكر حادثة رصخت في أذهان العرب رسوخاً لا يمكن استنصاله منها ، ألا وهي الحادثة المعروفة عندهم بسيل العرم أو فيضان السدّ

وإن نفس عاطفة الوطنية المتأججة في صدر الهمداني والتي بمتته على أن يخص نفسه للبحث العلمي قد أوحت إلى نشوان ابن سعيد - الذي ينتمى من ناحية الأب إلى أسرة قديمة من أشراف اليمن - أن يتذكر الماضي الخرافي ويتعلق بأحياء مجد أمباطورية زالت معالمها ودرست آثارها . وإنه ليتغنى في « القصيدة الحميرية » بمظمة وقوة أولئك الحكام الذين تبوأوا عرش أمته ، ويؤوّل في روح إسلامية حقة حقيقة الفناء والحياة ، وحقارة المطامع البشرية^(٣) ، ومع أن هذه القصيدة في ذاتها قليلة القيمة فإنها تعتبر وثيقة قيمة - نوعاً ما - لاشتمالها على أسماء الملوك^(٤) ، ومعها شرح تاريخي وإن لمّا أن يكون كاتبه نشوان نفسه - وهذا ما يرجحه فون كريمر - أو أحد معاصريه . والذين لا يرون التاريخ إلا بمجل حقائق لن يجدوا مأربهم في هذا التعليق ، إذ زى خيوط الحقيقة معقّدة متشابكة مع أساطير خرافية مكذوبة ، وقد وضع القصاصون في فجر الاسلام صورة حرفية لثل هذه الأساطير ، من ذلك أن أحد عرب الجنوب واسمه « عبيد بن شربة » زار دمشق تلبية لدعوة الخليفة معاوية بن أبي سفيان الذي سأله « عن الأخبار المتقدمة ، وملوك العرب والمعجم ، وسبب تبلبل الألسنة وأمر افتراق الناس في البلاد^(٥) » وطلب إليه أن يكتب وأمر أن يجمع وتكتب إجابته كلها ثم تنشر باسمه ، وهذا العمل الذي

(١) Die Hajarische Kasidsh herausgegeben und übersetzt von Alfred von Kremer (Leipzig, 1865) . W. F. Lideaux: The Lay of the Himyarites (Sshose, 1879)

(٢) كان نشوان طالما لغويًا شهيرًا ، وإن قاموسه الكبير « شمس العلوم » لحير عون لمن يدرسون آثار حرب الجنوب ، وقد اعتمد عليه D. H. Müller في تصحيح أسماء الأعلام التي وردت في « القصيدة الحميرية » وقد قام الدكتور هزم الدين أحمد بطبع مقطعات من « شمس العلوم » تعلق باللغة العربية الجنوبية (E. S. W. Gibb Memorial Serie, vol. xyliv.)

(٣) الفهرست لابن النديم ص ٨٩ من ٢٦

(١) وما قاله السمودي « ولم يصح عند كثير من أهل الدراية بأخبار الماضين وسير النابرين من العرب وغيرهم من القدمين فيها إلا خبر عبيد بن شربة وأخباره مما سلف من الأيام وما كان فيها من الكوائن والأحداث وتعب الأنساب ، وكتاب عبيد بن شربة في يد الناس مشهور » راجع « صروج الذهب طبعة باريه دي ميناردج ٤ ص ٨٩ » (المترجم)

(٢) Von Kremer: Die Tüdarabische Sage, P. 56

ومن الممكن أن تكون هذه القصة (كما يرى كريمر ص ١١٥) رمزاً لحقيقة ثابتة تلك هي تشعب السبئيين إلى فرقتين كبيرين : حمير وكهلان وقد كانت القوة في يد الأول

وأتم النظر نشاهد جرذاً يحرك حجراً كبيراً بهجز خمسون رجلاً
جلداً عن نقله من مكانه فأيقن عمرو أن السد منهار ، وأن
الأرض لا بد هالكة عن عليها ، فزم على بيع أملاكه والرحيل
بعائلته ، لكنه خشى أن يبعث الاضطراب إلى قلوب السكان ، فدبر
حيلة ناجحة ، ذلك أنه دعا أشراف المدينة ورووسها إلى وليمة فاخرة
مدها لهم ، واتفق مع ابنه أن يشيرا الخلاف بينهما (أو بينه وبين
البنيم الذي درج في بيته كما يقول آخرون) وتبولدت بينهما
الضربات فصاح عمرو : « وافضيحتاه !! أنى يوم مجدى ونفري
يسبنى ويلطمنى غلام عاق ؟ » ثم أقسم أن يقتل الفتى ، فتوسل
إليه ضيوفه أن يرجه ويرأف به فأجابهم ، بيد أنه أقسم قائلاً :
« لا أقيم ببلد لطم وجهي فيه أصفر ولدى وسأبيع أرضي
ومتاعي » وإذ نجح في الخلاص من أعبائه — إذ لم يعدم
مشترين لبوا دعوته واغتنموا غضبته — لم يتردد في أن يجبر الناس
بما يهددهم من بلاء ثم بارح مأرب على رأس جمع حشيد ، ثم
أخذت المياه تنقب السد شيئاً فشيئاً وتغمر الأرض ، مرسله في
لجتها الدمار طولاً وعرضاً ، ومن هنا نشأ المثل القائل « تفرقوا
أيدي سبأ » أي تشتتوا كما تشتت قوم^(١) سبأ

وإن ذلك الطوفان ليؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية
ثم غاضت المياه واخضرت الأرض بمد امحال وعادت إلى
الابناح والزرع ، بيد أن مأرب ظلت مهجورة ، واخفق السبئيون
إلى الأبد إلا ما يذكره الأعشى في قصيدة له من قوله^(٢)
وَفِي ذَلِكَ لِلْمُؤْتَمِي أُسْوَةٌ وَمَأْرَبُ عَضَّ عَلَيْهَا الْعَرَمُ
رَحَامٌ بَنَتْهُ لَهُمْ جَحْمِيرٌ إِذَا جَاءَ مَوَارِدُهُ^(٣) لَمْ يَرَمِ
فَارَوْى الزُّرُوعَ وَأَعْنَابَهَا^(٤) عَلَى رِسْعَةٍ مَأْوَاهَا إِذْ قَسَمَ
فَصَارُوا أَيَادِي مَا يَقْدِرُونَ مِنْهُ عَلَى شُرْبِ طِفْلِ فُطَيْمِ
وليست في كلام الشاعر عن حيردة تاريخية ، أما الجيريون
وعاصمتهم ظفار (صنعاء فيما بعد) فقد صاروا حكام اليمن بعد

(١) Freytag: Arabum Proverbia, Vol I, P. 497

وترجمه هكذا

Abiesunt tanquam agmina Sabaeorum; et dispersi sunt
tanquam agmina Sabaeorum

(٢) الهداني : الأكليل الكتاب الثامن طبعة ميلر في S.B.W.A.

في فينا ١٨٨١ ج ٩٧ ص ١٠٣٧ ، وقد نقل هذه الأبيات ياقوت الحموي في
شئ من التنوير في سجمه (طبعة وستنفلد) ج ٤ ص ٣٨٧ وابن هشام ص ٩

(٣) بنتع الميم وبعضهم يرويه بالضم والفتح أصح مأخوذ من قوله تعالى

« يوم تمور السماء مورا »

(٤) قوله « فاروى الزروع وأعناؤها » أي أعناها تلك البلاد

(ابن هشام)

على بضعة أسبال قلائل من الجنوب الغربي لأرب تمتد الجبال
متلاحمة تاركة فيما بينها أخدوداً يشقه نهر « أدنة » الذي يجف
غالباً مجراه خلال فصل الصيف ؛ أما في الشتاء فتسقط الأمطار
الغزيرة وتتدفق المياه بقوة هائلة تكاد لا تحتمل ، فلكي تكون
المدينة بمنجاة من الفيضان ولأجل تنظيم الري وزرع الأرض
وفلحها بنى الأهالي سداً من الحجر الصلد استرعى خيال محمد بعد
أن دمر تماماً ، وعده المسلمون إحدى عجائب الدنيا^(١) . وليس
بغريب أن ألبس مؤرخوهم تلك الحقيقة المجردة (انفجار السد)
ثوب حادثة فضفاضة طريفة^(٢) وإذ آذنت شمس القرن الثالث
لديلاذ بالغيث^(٣) أو قبل ذلك بقليل كان يتربع على عرش مأرب
عمرو بن عامر ماء السماء المزقبيا^(٤) ، وكانت زوجته « ظريفة »
ماهرة في علم الكهانة خبيرة بفنونها ، وقد رأت أحلاماً ورؤى
تنبئ عن شر جسيم يهددهم ، وفي ذات يوم قالت لزوجها الذي
لم يكن يشق في عرفاتها : « امض إلى السد فإن أبصرت فأراً^(٥)
ينبش السد بمخالبه ويقذف قطعاً كبيرة من الصخور بقدميه
الخلفيتين فتيقن بأن المذاب قد حل بنا » فضى عمرو إلى السد

(١) لقد كان لسبأ في مكنتهم آية جتان عن يمين وشمال كلوا من رزق
ريكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل
المرم وبدلناهم بمجتهم جنتين ذواتي أكل حط وأثل وشيء من سدر قليل
(٢) ٣٤ : ١٥ — ١٦ من القرآن ، أما الخرائب الباقية فقد وصفها
Arnaud في الجريدة الآسيوية المجموعة السابقة ٣٢ (١٨٧٤) ص ٣ وما بعدها
(٣) راجع مروج الذهب (طبعة باريه دي مينارد) ج ٣ ص ٣٨٧
وما يليها والتويرى Pimoe lineae Rerum Arab icarum ص ١٦٦
وما يليها

(٤) ربما كان قصة الهجرة من مأرب — التي ذكرت —
أساس تاريخي ولكن السد نفسه لم يهدم كله إلا بعد دمر طويل ، وإن
التفوش التي عثر عليها منحوتة في الصخور الباقية منه ليستدل منها على أنه
ظل قائماً حتى منتصف القرن السادس الميلادي وإن أول فيضان معروف قد
وقع بين عامي ٤٤٧ — ٤٥٠ م كما أعاد بناء بعض أجزاء السد وارهة
الحبصي ، وإلى اليمن بين ٥٣٩ — ٥٤٢ م . راجع ذلك في « كتابات
في انفجار سد مأرب لجلسير »

E. Olaser: Zuli Inachaiten ueber den Dambruch von
Mârip (Mitteilungen der Vorderasiatischen Gesellschaft. 1697.)

(٥) يقول الأستاذ نيكلسون إنه كان من عادة عمرو بن عامر أن يترق
ثوب نهاره كلما جن الماء . أما صاحب كتاب « النيجان في ملوك حير »
فيقول « صبي مزقبيا لأنه كانت تنسج له في كل سنة ثلثائة وستون حلة ثم
يأذن للناس في الدخول فإذا أرادوا الخروج استلبت عنه وتمزق قطعاً ولذلك
صبي مزقبيا » ص ٣٦٢ طبعة حيدرآباد الدكن سنة ١٣٤٧ هـ (المترجم)
(٥) وقد قال في ذلك أحد الشعراء :

ولد همد لدمامرش بليس همد وخرّب حفر الفأرسداً لمأرب
(المترجم)

وأرصد سداً من حديدٍ إذا بدا ومن عينٍ قطرٍ مترعاً ليس بظهورٍ
رعى فيه بأجرجاً ومأجوجاً عنوةً
إلى يومٍ تدعى للحساب وتُنشرُ (١)

(تبع) ترجمته محمد مهدي

الصباح الجديدة « (راجع ما كتبه D. H. Muller في S. B. W. A. مجلد ٩٧ من ٩٣٧ وما بينها) ونجد في القوش المينية « عثر الحاملة وعثر الواقعة » (شرح من ١٠٣٣) أضف إلى ذلك أن عثر والله يذكران في أقدم القوش دائماً مقروين بعضهما ببعض . أما « الفه » (وهي فينوس أو الزهرة كما يذكر الهمداني) فيعتبرها علماء الآثار القديمة من العرب بقرين ، أما عن « قرن » بمعنى « أشعة أو ضوء » فراجع ج ١ ص ١١٤ من كتاب جولدهزهر Abhand - zur Arab. Philologie ولا يحوم كثير من الشك في إضافة اسمي « ذي القرنين وبقريس » إلى الأمثلة العدة لهذا التعبير الذي بواسطته استطاعت كثير من آلهة الوثنية أن تظل قائمة في ظل الإسلام بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة

(١) Von Kremer Altarabis-che Gedichte ueber qei Vol- (١) kssage von Jemen P. 15 (No. viii, 6 seg)

وهذه الأبيات لحسان بن ثابت شاعر الرسول

المأسي التاريخية الكبرى

بقلم الأستاذ حسن الشريف

هذا كتاب يجمل بكل شرق أن يقرأه وأن يطيل فيه التفكير فإن كل فصل من فصوله الأربعة والعشرين يحتوي درساً بليغاً يتحدثنا أننا نعرف من مدينة أوروبا سوى مظاهرها الزاهية وألوانها البراقة ، وأننا نجمل ما وراء هذه المظاهر والألوان من فضاء يحور لهولها الضمير البشري وينسدى من عارها جبين التاريخ . نعم ليقرأ الشريون هذا الكتاب ليتعلموا منه كيف يعزرون بمدينة أسلافهم إذا هي وضمت في ميزان الحقائق إلى جانب مدينة الفريين ، فإن تلك المأسي التاريخية الكبرى مرآة صادقة تنجل فيها مقام أزمى المصور في تاريخ أوروبا وغازي أعظم الملوك وأختم الأسماء في تلك المصور . وهي فوق ذلك تحفة أدبية نفيسة تمتاز برشاقة الأسلوب ووقرة التصوير فلا غنية عنها المدرس ولا للطالب ولا للأديب أطلبوا هذا الكتاب المتع من مكاتب القاهرة المعروفة ومن مكتبة فيكتوريا بالاسكندرية بشارع سعد زغلول وثمانه ١٥ قرشا صاعاً

انفجار سد مأرب وتلاشي السبئين الذين أقاموه (١)
أما تبع الأول — الذي أطلق لقبه مؤرخو المسلمين على من خلفه من ملوك حمير فيسمى « حارث الرائي » لأنه زين بيوت قومه بالفنم والأسلاب مما جابهه معه — كفاًح — من الهند وأذربيجان (٢) ، أما عن التباينة التي ولوا الحكم بعده فإن بعضهم يدين بدرجه في سلسلة حمير إلى النساين الذين كان احترامهم للقرآن يفوق دقتهم النقدية كما حدث مثل هذا بشأن المخلوق الخرافي صعب ذي القرنين ، وإن الأبيات التالية لتخط بينه وبين ذي القرنين المجيب الوارد نبؤه في القرآن والذي يعتبره معظم المفسرين نفس الأسكندر الأكبر (٣)
لنا ملك ذي القرنين هل نال ملكه

من البشر المخلوق خلق مصور؟
نوى ثم يلو الشمس عند غروبها
لينظرها في عينها حين تدحر
ويسمو إليها حين تطلع غدوةً ليلتها في برجها حين تظهر
دليلاً بأسباب السماء نهاره (٤)

(١) وقد وجد الوصف التالي محفوراً على حجر من الفراميد الصخرية التي وصفها أرنود في الجريدة الآسيوية بضميرين (بتشديد الياء وكسرهما) ابن سمع على بنوف أمير ساء قد تهب جبل البق وبنى السدود (وتسى رحب) لتنظيم الري وميللر (المرجع السابق من ٩٦٥)

(٢) لم ترد بياناتا كلتا « حمير وتبع » في القوش القديمة ، أما في الحديثة فلم ترد إلا قليلاً جداً

(٣) يقصد ما جاء في سورة الكهف (ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً ، إننا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبياً فأصبح سبياً ، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً ، وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم أصبح سبياً ، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً ، ثم أصبح سبياً ، حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً ، قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً ، آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا ، حتى إذا جله ناراً قال آتوني أنفخ عليه قطراً ، فإسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقياً) (الترجم)

(٤) وصف الهمداني في كتابه جزيرة العرب (من ٣٦ ص ١٠) ذا القرنين بأنه « ساح الأرض » وإذا ترك مجال التاريخ الأدبي لحظة لأشرح الحرافة التي تصرب من خلال هذه الأبيات ، فيظهر لي أن « ذا القرنين » إما يقصد به الآلهة السبئية « عثر » التي تمثل « نجمة